الاغتراب في الشعر الصوفي– شعر السهروردي أنموذجا

Alienation in Sufi poetry- Al-suhrawardi's poetry as a model

عبد الوحيد خليل شوكت **Abdulwahid kh shawkat**

مدرس مساعد **Assistant lecturer**

مديرية تربية نينوى **Education Nineveh Directorate**

Abdwahed80@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٣/١١/١٦ **تاريخ القبول** ٢٠٢٣/١٢/٢٤

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، السهروردي، الشعر الصوفي

Keywords: alienation , sufi poetry ، alsuhrawardi

الملخص

تعد ظاهرة الاغتراب من الظواهر القارة في التجربة الروحية للصوفي، وكانت هذه الظاهرة في وجدانه ووجوده فعاشها في العالمين (الظاهر والباطن)، واستعملها بمعانيها المختلفة وإن كانت لهذه الظاهرة خصوصية اصطلاحية في هذه التجربة الروحية كما هي الاصطلاحات الأخرى من قبيل الرمز والحب، إلّا أن محورية هذه الظاهرة تدور حول الانفصال والاتصال .

Abstract

The phenomenon of alienation is one of the constant phenomena in the spiritual experience of the Sufi poet, and this phenomenon was in his consciousness and existence, so he lived it in both worlds (the apparent and the hidden), and used it with its different meanings, although this phenomenon has a terminological specificity in this spiritual experience as are the other terms such as symbol and love, but the centrality of this phenomenon revolves around separation and connection .

الشعر الصوفي

تكتسب اللغة شعريتها من خلال الاستعمال الخاص لها، فالمبدع يخرجها من دائرة المواضعة ويحملها دلالات جديدة يبتعد بها عن اللغة العادية المألوفة، فاللغة الشعرية هي "لغة اختراق المألوف والتعبير عما لا يعبر عنه، اللغة الشعرية ثورة مستمرة على اللغة وهي في نفس الوقت تجسيد للحقيقة الداخلية أو الباطنية للأشياء والعالم ولما لا يستطيع الشاعر أن يقوله باللغة العادية "[١]، وإذا قلنا اللغة الصوفية فمن المؤكد لا نقصد بها تلك اللغة ضمن إطارها التوصيلي والتي تتألف من مفردات لا تخرج عن المألوف والمواضعة، فهي لغة تتجاوز أساليب التعبير العادية أو الإبلاغية فهي قائمة "على نوع من العلاقات الظاهرة والخفية، يقيمها المبدع بين مكونات النسيج اللغوي في أنساقه المختلفة، وضبط تلك العلاقات بكيفية معينة، تحقق رغبته في التعبير وتشبع حاجاته إلى البوح والإفضاء، وتحمل ما يريد في مسحة جمالية فنية "[٢] ومن هنا فإن العلاقة بين الصوفي والشاعر علاقة قائمة على الجدلية فكلاهما يبحث عن لغة فيها الغرابة " والإغراب في الشعر يمثل ركناً من أركان الشعرية "[٣] وذلك للتخلص من رتابة اللغة العادية ولتستعيد اللغة ديناميتها، فالتجربتان (الصوفية والفنية) ينتميان لنسق واحد في ابتعادهما عن المألوف واقترابهما من دائرة الغرابة " والتجربة الصوفية والتجربة الفنية لا ينتميان لنسقين مختلفين تماماً، ففي كليهما انخراط في الوعي الذاتي الذي لا يفتؤ آخذاً في التمدد والنمو والاتساع، وفيهما نبذ للمألوف والمعتاد"[٤]، على هذا الأساس فقد لجأ الصوفية إلى الشعر في تجربتهم الروحية لخلق معادل موضوعي للحالة التي يعيشها مع الاحتفاظ بوجود الفارق بين الرؤيا الصوفية والرؤيا الشعرية " إنّ وظيفة اللغة تختلف عند كل من الشاعر والصوفي تبعاً للتباين في رؤياهما "[٥] فقد تكون اللغة قاصرة في التجربة الصوفية

---

(١) شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، سحر سامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ٢٠٠٥م:٧٤ .

(٢) في لغة القصيدة الصوفية، محمد علي كندي، دار الكتاب الجديد، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٠م:٨٠.

(٣) شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي: ٤٩.

(٤) تراث الادب الصوفي، عاطف جودة، مجلة فصول المصرية، العدد١، ١٩٨٠م: ١٠٧.

(٥) الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، عدنان العوادي، دار الرشد، بغداد،١٩٧٩م:٣١.

فتجيء أشعارهم كشطحات وهذا الإحساس بضيق العبارة عبّر عنه النفري بقوله ((كلّما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة))[١].

الاغتراب لغة واصطلاحاً:

اتفقت المعاجم العربية على تحديد المفهوم اللغوي للاغتراب ووضعه في دائرة ضيقة، فأغلب المعاني المتعلقة بهذا المفهوم جاءت بمعنى البعد والنوى والغموض، إذ جاء في معجم العين بمعنى البعد عن الوطن والغُربة النّوى: "الاغتراب من الوطن وغرب فلانٌ عنا يغربُ غرباً أي تنحّى وأغربته وغرّبته أي نحيته والغربة النوى البعيد يقال: شقّت بهم غُربةُ النوى وأغرب القوم انتووا، وغايةٌ مُغرِبَةٌ أي بعيدة الشَّأْوِ وغرّبَتِ الكلابُ، أي أمعنت في طلب الصيد... والغريبُ الغامضُ من الكلام وغرُبت الكلمة غرابة وصاحبُه مُغرِبٌ"،[٢] وقد ورد في لسان العرب بمعنى الذهاب والتنحي عن الناس، والغربة والغَرب النوى والبعد " وغربَ أي بعُدَ ويُقال غرُب عني أي تباعد ومنه الحديث أنه أمر بتغريب الزاني، التغريبُ النفيُ عن البلد الذي وقعت الجناية ... والغُربةُ والغُرب النزوحُ عن الوطن "[٣] .

أما الرازي في مختار الصحاح في مادة غرب فيقول عنها: " الغربة والاغتراب تقول تغرّب واغترب بمعنىً فهو غريب وغربٌ والجمع الغرباءُ والغرباء أيضاً الأباعدُ واغترب فلان إذا تزوّج إلى غير أقاربه وفي الحديث "اغتربوا ولا تضْووا" والتغريبُ النفيُ عن البلد "[٤] .

ومن هنا فإنّ المعنى اللغوي للاغتراب متفق عليه بين أهل اللغة على أنه: البعد والنوى والابتعاد عن الوطن، ويشير هذا المعنى إلى الانفصال عن شيء "إذ تشترك هذه الدلالة بجذر واحد هو (الانفصال عن) وبإرادة ذاتية أي حصول الانفصال برغبة الذاهب وإرادته"،[٥] وبذلك وبذلك يكون هذا المعنى ناقصًا في بعده الآخر النفسي والمعنوي الذي سنراه شاخصًا في المفهوم الاصطلاحي.

---

(١) المواقف والمخاطبات، محمد بن عبد الجبار بن الحسن النِفَّري، تح: أرثر يوحنا أربري، مكتبة المتنبي، القاهرة، د . ت:٥١ .

(٢) العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ: ٣ / ٢٧١ – ٢٧٢ .

(٣) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت . لبنان، ج١: ٦٣٨– ٦٣٩ .

(٤) مختار الصحاح، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، ١٩٨٦: ١٩٧ .

(٥) الاغتراب في الشعر العربي، أحمد علي الفلاحي، دار غيداء، ط١،١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م: ٢٠١٣م: ١٢ .

أما المعنى الاصطلاحي فإنّ الاغتراب ظاهرة إنسانية ارتبط وجوده بوجود الإنسان، وأنّ هذه الظاهرة قد ضربت بجذورها منذ اللحظة التي اغترب فيها أب البشرية آدم (عليه السلام) وهبوطه وانفصاله عن العالم العلوي، وقد تجلت هذه الظاهرة في الكتابات اللاهوتية، وهناك من تتبع الظاهرة في الفكر اليوناني القديم فأرخ لها ويرى أنّ "هناك ما يشير إلى وجود المفهوم في الفكر اليوناني القديم، وكثير من مؤلفي الفلسفة يردون الفكرة إلى كتابات أفلوطين ونظريته عن الفيض"[١]، وعلى الرغم من قدم مفهوم الاغتراب إلّا أنّه استعمل هذا المصطلح استعمالاً منهجياً من قبل هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) من غير أن يكون مبتدعاً لأصل المصطلح، مستمدًا الفكرة من مراحل سبقته، إذ كانت الكلمة اللاتينية alienation ترد في سياقات مختلفة: قانوني بمعنى انفصال الملكية عن صاحبها، ونفسي اجتماعي بمعنى انفصال الإنسان عن ذاته ومخالفته لما هو شائع في المجتمع، وديني بمعنى انفصال الإنسان عن الرب،[٢] ومن المعلوم أنّ الأقوال والآراء قد تضاربت في تحديد المفهوم الدقيق للاغتراب، فقد اتسم هذا المصطلح بالغموض كثيراً ؛ لأنّ الجانب المعرفي له تعرض لتحليل وتعريف مسهب في اختصاصات عدة (نفسية، اجتماعية، دينية، اقتصادية، قانونية ...)، ولسنا في صدد العرض التاريخي للمصطلح وما طرأ عليه من تغيير في المفهوم، إلّا أنه يكاد ينعقد اتفاق بين الدارسين المختصين لدراسة هذه الظاهرة على أن هيجل أول من استعمل مصطلح الاغتراب استعمالاً منهجياً مقصوداً، "ومن هنا كان النظر إلى هيجل، من جانب الباحثين على أنه أبو الاغتراب"،[٣] واستعمل هذا المصطلح استعمالاً مزدوج الدلالة إيجابيا وسلبيا، فالدلالة الأولى تتمثل في تخارج الروح وتجليه على نحو إبداعي، أما الدلالة السلبية فتمثلت في عجز الذات من تعرف نفسها، وقد عبر عن هذا المعنى" بأنه حالة اللاقدرة أو العجز التي يعانيها الإنسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومنتجاته وممتلكاته فتُوظف لصالح غيره بدل أن يسطو هو عليها لصالحه الخاص"،[٤] لكن المرحلة التي تلت المرحلة الهيجلية استعملت هذا المصطلح ووظفته ضمن إطار الدلالة الواحدة فقد كان التركيز على المعنى السلبي " فغدونا لا نرى المصطلح إلّا مقترناً، في أغلب الأحوال، بكل ما يهدد وجود الإنسان وحريته بالاستئصال أو التزييف، وأصبح الاغتراب وكأنه مرض أصيب به الإنسان

(١) الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا، قيس النوري، مجلة عالم الفكر المجلد العاشر العدد١، ١٩٧٩م: ٥.

(٢) ينظر: الاغتراب سيرة مصطلح، محمود رجب، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٨م: ١٠ .

(٣) المصدر نفسه: ١٣ .

(٤) الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الانسان بين الحلم والواقع، حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٦: ٣٧ .

الحديث"،[١] ومن خلال هذه النظرة الأحادية ينتهي ماركس إلى فكرة شاملة متخذاً الاغتراب الاقتصادي أصلاً لجميع أنواع الاغتراب الأخرى، فاغتراب الإنسان عن نفسه ناتج عن اغتراب العمل والإنتاج، ولا سبيل للتخلص من هذا الاغتراب سوى الانتماء إلى النظام الشيوعي.

أما الوجوديون فقد ربطوا بين الحرية والاغتراب من خلال علاقة جدلية، فلا وجود للحرية إلا بعد قهر الاغتراب لأنهم يعدون الاغتراب" ضرب من ضروب الوجود الزائف، غير الأصيل وغير المشروع، الذي يسقط فيه الإنسان سقوطاً يفقد معه حريته، مناط إنسانيته وجوهر وجوده"،[٢] أما علماء النفس فقد أسهبوا الكلام في مفهوم الاغتراب، إذ تعد هذه الظاهرة عند علماء النفس ظاهرة مرضية متمثلاً وبشكل جوهري بانفصال الفرد عن ذاته، ومن هنا فإنّ منشأ الاغتراب عند فرويد "نتيجة لضياع الأنا بين الهو وبين الأنا الأعلى المتصارعين وسلب حرية هذا الأنا مرة، وسلب معرفته مرة أخرى"،[٣] وهناك ارتباط وثيق بين الاغتراب الاجتماعي والاغتراب النفسي من حيث المعنى لأنّ "أغلب المغتربين نفسياً كانوا أيضاً مغتربين اجتماعياً، بمعنى أن اغترابهم أي اضطرابهم كان في جانب كبير منه أثرا من آثار نبذ المجتمع أو تجاهله أو مطاردته لهم ... ومن ثم كانوا غرباء بين الآخرين، تميزوا بعدم الانتماء إلى الآراء أو المعتقدات الشائعة المألوفة"،[٤] ولا شك أن الرابط بين ما هو نفسي وبين ما هو اجتماعي كبير على نحو يؤثر كل منهما في الآخر.

أما الاغتراب عند الصوفية فإنه يأخذ منحىً آخر، فعلى الرغم من حضور هذه الظاهرة بمعانيها المختلفة في التجربة الصوفية إلّا أنّ لها دلالة متميزة تختلف عند الكثير من الكتاب والشعراء في الثقافة العربية فضلاً عن الثقافة الغربية، وهذا لا يعني الانفصال الكلي عن الدلالة؛ كونها تعد " ظاهرة إنسانية يمكن أن تتبعها بشكل أو بآخر في مختلف النظم والثقافات والمجتمعات"،[٥] ولا يخفى على المتتبع للتجربة الصوفية ما لها من تداخل مع

---

(١) الاغتراب سيرة ومصطلح: ١٦ .

(٢) المصدر نفسه: ١٨ .

(٣) نظرية الاغتراب من المنظورين العربي والغربي، لزهر مساعدية، دار الخلدونية، الجزائر، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م: ٣٤ .

(٤) الاغتراب سيرة مصطلح: ٣٦-٣٧ .

(٥) الاغتراب – اصطلاحا ومفهوما وواقعا، قيس النوري، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر العدد الأول ١٩٧٩: ١٠ .

التجربة الشعرية، وأنّ الصوفية قد لجأت إلى الشعر وتوسلت به في تجربتها ؛ لما يجمع بين التجربتين من أمور عديدة من أهمها اللغة والخيال والعاطفة، واذا كان الشاعر العربي قد وظف الاغتراب توظيفاً حسياً بمفارقته الوطن والأحبة، فإنّ الصوفي جعل من هذا التوظيف منطلقاً للبعد المعنوي لما بين عالم الملك – الظاهر أو عالم الشهود – والملكوت – عالم المعنى – اتصال ومناسبة " فما من شيء من هذا العالم إلّا وهو مثالٌ لشيءٍ من ذلك العالم"[١] ومن هنا فإن الشاعر الصوفي قد وظف ظاهرة الاغتراب في أشعاره بمعانيها المختلفة فتارة نجده من حيث الظاهر يذكر الأطلال ويبكي على الديار وأخرى غربته عن المجتمع وما يعانيه لجهل الناس بحاله ومقامه ومن ثم قد يحزن ويبكي ويتألم لينقل إلينا صورته النفسية وكأنه مصاب بعقد نفسية يصعب علاجه، إلا أن الصوفي الشاعر يخرج من دائرة المواضعة والمألوف ليحمّل نصه دلالات جديدة لذلك سنجد توظيف السهروردي[٢]لهذه الأنواع مغاير لما هو ظاهر من حيث المعنى المألوف .

---

(١) مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، الغزالي، تح: عبد العزيز عز الدين السيروان، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦: ١٥٤ .

(٢) هو يحيى بن حبش بن اميرك أبو الفتوح شهاب الدين السهروردي ولد في سهرورد سنة ٥٤٩هـ ونشأ بمراغة وسافر إلى حلب، له عدة تصانيف في مختلف العلوم كالسيمياء والمنطق، من كتبه التلويحات، هياكل النور، الأسماء الإدريسية، الألواح العمادية، حكمة الإشراق، مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم ....، اجتمع بالملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب فكان ابن السلطان متأثراً بكلامه مائلاً اليه، فكتب أهل حلب إلى السلطان صلاح الدين: أدرك ولدك وإلّا تتلف عقيدته، فكتب إليه أبوه صلاح الدين بإبعاده فلم يُبعدهُ، فكتب بمناظرته، فناظره العلماء فظهر عليهم بعبارته، فقالوا إنك قلت في بعض تصانيفك: إن الله قادر على أن يخلق نبياً وهذا مستحيل فقال: ما وجه استحالته، فإن الله القادر هو الذي لا يمتنع عليه شيء،فحبسه الظاهر وجرت بسببه خطوب وشناعات، وطال أمره إلى أن أمر السلطان بقتله فقتل في يوم الجمعة منسلخَ ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ، ينظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م، ٦/١١٤–١١٥، الأعلام خير الدين الزِركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م: ٨ / ١٤٠.

أولاً : الاغتراب المكاني

حفل الشعر العربي في جميع العصور بالقصائد التي تعبر عن الغربة والابتعاد عن الأهل والوطن إذ نجد أن بنية القصيدة الجاهلية كانت تبدأ بالوقوف على الأطلال وذكر الديار فتثير هذه الذكريات الحنين والشوق إلى ساكني هذه الديار، فامرؤ القيس وقف على الديار واستوقف (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وكذلك فعل طرفة ولبيد وزهير وعنترة[١]" وهذا هو الأسلوب العام في ابتداء المطولات، البدء بالديار وحديثها عن ذكرياتها "[٢] فإذا كان السفر وترك الديار – الوطن – سبباً للغربة المكانية في التجربة الشعرية، فإنّ الشاعر الصوفي يعيش الغربة في دار الدنيا لأنه ترك موطنه الأصل – الآخرة – ويحن إلى المواضع التي فيها وصاله يقول ابن عربي[٣]:

كُلـــــما أذكـــــره مـــــن طـــلَلٍ أو ربـــوعٍ أو مغانٍ كلّمـــــا[٤]

وفي أبيات أخرى مروره بالمنازل تذكره من سكن فيها يقول :

قِف بالمنازل واندبِ الأطـــــلالا وســـلِ الربوع الدارساتِ سؤالا

---

(١) ينظر: شرح المعلقات السبع، الزوزني، الدار العالمية، بيروت، ١٩٩٢م.

(٢) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٥، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م: ٢٤٥.

(٣) محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الأندلسي، المعروف بمحي الدين بن عربي ولد بمُرسية سنة ٥٦٠هـ، صاحب التصنيفات في التصوف له نحو اربعمائة كتاب ورسالة، ومن أشهر كتبه في التصوف (الفتوحات المكية)، و (فصوص الحكم)، وله في الأدب ديوان شعر اكثره في العرفان الصوفي، زار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة ٦٣٨هـ، ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، تح: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م: ١٧٣/٧، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري التلمساني، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ ـــ ١٩٦٨م:١٢٤/٤.

(٤) ديوان ترجمان الأشواق، محي الدين بن علي ابن العربي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د.ت: ٢٥.

أين الأحبةُ ؟ أين سارت عيسهم هاتيك تقطعُ في اليبابِ ألا لا ؟[١]

إنّ بنية الطلل تختزن بنية الانفصال والاتصال، فهو يشتاق ويحن إلى الأمكنة التي كانت فيها وصاله وبقول في قصيدة أخرى :

حنّتِ العـــــيسُ إلى أوطـــــانها من وَجى السّيرِ حَنينَ المُستهامِ[٢]

والشاعر الصوفي في ذكره للعيس – إبل في لونه بياض – لا يريد المفهوم الحسي له وإنما إشارة إلى همم الصوفية وما دفعهم إلى هذا السير والسلوك هو الشوق والحنين وقد تكرر ذكر العيس عند الشعراء الصوفية يقول الششتري: [٣]

لِلعيسِ شوْقٌ قادها نحو السّرى لمّا دعا أجفانَها داعي الكَرى

أرْخِ الأزمّة واتّبعها إنّها تدري الحمى النّجديّ مـــع مـــن درى[٤]

والصوفية في سفر دائم من أجل الوصال وهذا ما ذهب إليه أبو العباس المرسي،[٥] في قوله "الزاهد غريب في الدنيا، لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة "[٦]، والسفر معراج روحي للتخلص من علائق عالم المُلك والولوج إلى عالم الملكوت، وعند الغزالي السفرُ سفران: "سفرٌ بظاهر البدن عن المستقرّ والوطن إلى الصحارى والفلوات، وسفرٌ يسير القلب

---

(١) ديوان ترجمان الأشواق، محي الدين بن علي ابن العربي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د.ت: ٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٥.

(٣) علي بن عبد الله النميري، الفقيه الصوفي، اجتمع بابن إسرائيل وخدم ابن سبعين وتلمذ له، واشتهر بإتباعه له حتى صار يعبّر عن نفسه في منظوماته وغيرها بعبد ابن سبعين، توفيَ سنة ٦٦٨هـ ودفن في دمياط ينظر: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب: ١٨٥/٢.

(٤) ديوان أبي الحسن الششتري، تح: علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٦٠: ٤٩.

(٥) أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد والصوفي العارف وارث شيخه أبي الحسن الشاذلي، أصله من مرسية في الأندلس، توفي بالإسكندرية سنة ٦٨٦هـ ولأهل مصر فيه اعتقاد كبير إلى اليوم . ينظر: الوافي بالوفيات: ٢ / ١٩٠ ـ ١٩١، الأعلام خير الدين الزِركلي، دار العلم للملايين،بيروت،ط٥، ١٩٨٠م: ١٨٦/١

(٦) نفح الطيب: ٢ / ١٩٣ .

عن أسفل السافلين، إلى ملكوت السماوات، وأشرف السفرين السفر الباطن"[١]، والصوفي العارف في سفرٍ دائم نحو المحبوب، وقد قسّم صدر الدين الشيرازي[٢]السفر المعنوي على أربعة أسفار، وأول هذه الأسفار هو السفر من الخلق إلى الحق، يقول: " اعلم أنّ السفر هو الحركة عن الموطن أو الموقف متوجهاً إلى المقصد بطي المراحل وقطع المنازل وهو صوري مستغن عن البيان، ومعنوي وهو على ما عدّه أهل الشهود أربعة، الأول السفر من الخلق إلى الحق..."[٣]، ويأخذ السفر عند ابن عجيبة[٤]منحى الترقي والانتقال عن المقامات، وأهم الأسفار لديه الانتقال من عالم المادة إلى عالم المعنى، وأكّد أنّ السفر المعنوي لا يتحقق إلّا بمحاربة النفس ومخالفتها،[٥]، فإذا كان الشاعر العربي يعيش الإحساس بالغربة بسبب البعد عن الوطن فإن الشاعر الصوفي اغترابه في الوطن فهو يعاني بسبب البعد عن الحق، وقد عبّر السهروردي عن غربته عبر رحلته الروحية بأسلوب حسي رفيع في هذه الأبيات، إذ يقول:

أقول لجارتي والدمع جار ولي عزمُ الرحيلِ إلى الدّيار

(١) إحياء علوم الدين: ٧١٢ .

(٢) محمد بن إبراهيم بن يحيى المشهور بـ (الملا صدر الدين الشيرازي)، توفي في سنة (١٠٥٩هـ)، ينظر: الاعلام: ٥ / ٣٠٣ .

(٣) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، صدر الدين الشيرازي، دار احياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م: ١٣/١ .

(٤) هو احمد بن محمد بن المهدي عجيبة الحسني عالم مغربي متضلع في العلوم الصوفية من علماء القرن الثاني عشر الهجري له كتب كثيرة منها البحر المديد في تفسير القران المجيد، ايقاظ الهمم في شرح الحكم، الفتوحات الإلهية، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، وغيرها كثير، ينظر: الاعلام: ١١٥ ٢٤٥ .

(٥) الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، أحمد بن محمد بن عجيبة، المكتبة الأزهرية الأزهرية للتراث، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م: ١٠١ ـ ١٠٢ .

ذريني أن أسير، فلا تُنَوحي فإنّ الشهب أشرفُها السّواري

وسيرُ السائرين إلى نجاحِ وحالُ المسرفين إلى البوارِ

وإنّي في الظلامِ رأيتُ ضوءاً كأنّ الليلَ بُدِّلَ بالنهارِ

ويأتيني من الصنعاءِ برقٌ يذكّرني به قُربُ المزار

أأرضى بالإقامةِ في فلاةٍ وفوق الفرقَدَينِ عرفتُ داري؟

فكيف أكون للديدان طعماً وأربعة العناصر في جواري

إلى كم آخذ الحيّات صَحبي؟ إلى كم أجعل التنين جاري؟

إذا لاقيتُ ذاك الضوء أفنى فلا أدري يميني من يساري

ولي سرّ عظيم منكروهُ يدُقّونَ الرؤوسَ على الجـــدارِ [1]

في البيت الأول من الشطر الثاني ذكر السهروردي (ولي عزم الرحيل من الديار) المعنى السطحي يدل على عزم الشاعر الصوفي على الرحيل وترك الديار وما ترافق هذه الرحلة من الغربة والاغتراب إلّا أنّ رحلته معنوية إلى الديار الروحية وإن كنّا لا نستبعد تزامن الرحلة المادية مع الرحلة المعنوية، فلا يستبعد فراقه جارته من أجل وصال المحبوب الحقيقي وما يصاحب هذا السفر المادي من أخطار وظلام فكأنه يريد أن يقول لجارته: لا تخشي ولا تبكي عليّ من أخطار الظلام في السفر فأنا كالشهب أضيءُ الظلام فلا خطر عليّ، لكن الدلالة المعنوية وما يسعى إليه الشاعر الصوفي هو السفر المعنوي من أجل الوصال ولقاء المحبوب الحقيقي وهو في سفر دائم، وإشارته للرحلة الحسية لأنّ "الرسوم الخارجة مُذكرة بالمنازلِ القلبية والمواطن الروحانية"،[2] وهو في رحلته هذه يحاول جاهداً أن يخفف وطأة الاغتراب وما نتج عن هذا البعد من ألم .

(١) ديوان السهروردي المقتول، شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، تح: كامل مصطفى الشيبي، مطبعة الرفاه، بغداد، ٢٠٠٥م: ٦٧ .

(٢) مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ، دار صادر، بيروت، تح، هـ . ريتر، د . ت: ٧٣ .

تتجلى الظاهرة الاغترابية على نحو واضح في الصراع الذي تعيشه الذات الشاعرة وهي تقارن بين حياتين حياة واقعية دنيوية تعاني فيها الذات الواقع والمحيط تكون فيه حال المسرفين إلى الفناء، وحياة روحية تتطلع إليها الذات تطلع السائرين فيها إلى الفلاح/ النجاح، ولأن التصوف موغل في أعماق الشاعر لا يتوانى عن اتخاذ القرار بالرحيل إلى الديار، لملاقاة المعشوق الذي تفنى الذات الصوفية فيه، لذا ترى ما لا يراه الآخرون فيسهل عليها ترك الحياة بما فيها من الأهل والجيرة والخلان فتترجى الجارة (ذريني أن أسير، فلا تنَوحي) لأن ما تنتظره وتتأمله هو معانقة الشهب (فإنّ الشهب أشرفُها السّواري) وليس أية شهب وإنما المتعالي منها (السواري)، وما تتأمله وتنتظره هو تبدد الظلام المخيم على النفس الممثل في النص بالليل واستبداله بنور تعرف المعشوق الحقيقي الممثل في النص بضوء النهار((وإنّي في الظلامِ رأيتُ ضوءاً / كأنّ الليلَ بُدِّلَ بالنهارِ)، " فالليل ليلان والنهار نهاران، والليل والنهار المدركان بالحس والبصر هما ظلّان كابيان وصورتان شاحبتان بالنسبة إلى الليل والنهار اللذين يتداولان قلب الصوفي"[١] ومع هذه الرؤية الصوفية تتعمق الرؤية الحوارية بين الذات الشاعرة وشخصية الجارة المستحضرة في النص التي من خلالها ترسل الذات الشاعرة رؤيتها الصوفية إلى المتلقي، فالمتلقي الضمني الحاضر في النص (الجارة) ما هو إلا تجلٍ من تجليات المتلقي المقصودة قابع خارج النص.

تتجلى هذه الرؤية الصوفية عبر مقارنة غير متكافئة بين حياة دنيوية أشبه بصحراء قاحلة (أأرضى بالإقامةِ في فلاةٍ)، ومعاشرة الحيّات والتنين (إلى كم آخذ الحيّات صَحبي؟/ إلى كم أجعل التنين جاري؟) وجسد تأكله ديدان الأرض (فكيف أكون للديدان طعماً)، وحياة روحية تعانق المطلق وتشرب من ضوء الإيمان الذي لا يزول (إذا لاقيتُ ذاك الضوء أفنى)، وتصل إلى السر الأعظم (ولي سرّ عظيم منكروهُ/يذُقّونَ الرؤوسَ على الجـــدار) وفي البيت إشارة واضحة إلى عدم المبالاة بم تقوله الألسن، أو عدم التصديق بهذه المكانة التي تصل إليها الذات الشاعرة.

(١) دراسات فنية في الأدب العربي، عبد الكريم يافي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م: ١٩١

ثانياً : الاغتراب الاجتماعي

لم يبتعد الشاعر الصوفي عن المفهوم الإسلامي في توظيفه الاغتراب، وعلى الرغم من أنّ الدين الإسلامي دين عملي واجتماعي ويحث على العبادة الجماعية ويؤكد صلة الرحم وجعل قطع الرحم من الكبائر، إلّا أنّ هذا لا يعني ذوبان المسلم في المجتمع المنحرف وقبوله مظاهر الفساد بحجة اجتماعية الدين الإسلامي؛ من هنا نفهم ما ورد في العديد من الآيات القرآنية عن ابتعاد أهل الحق وغربتهم عن مجتمعاتهم فنجد أنّ الحق تعالى يتحدث عن مؤمن غريب يدافع عن الحق في قوله تعالى ((**وجاءَ منْ أقصا المدينةِ رجلٌ يسعى قالَ يا قومِ اتبعُوا المرسلين**)) **يس ٢٠**، وقوله تعالى : ((**وجاءَ رجلٌ من أقصى المدينة يسعى ...**)) **القصص ٢٠**، ففي هاتين الآيتين ورد ذكر الرجل نكرة وهذه دلالة أولية لابتعاده وانعزاله المجتمع، وقد ذكر الآلوسي في تفسير الآية الأولى من سورة يس أن هذا الرجل جاء من أبعد مواضع المدينة وأنّ تنوين رجلٌ إما للتعظيم أو التنكير،[١] ونجد هذا المعنى واضحاً أيضاً في الحديث الشريف الذي ورد في صحيح مسلم عن الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم): ((بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء))،[٢] فالغرباء هم تلك الفئة القليلة التي وقفت مع الحق ضد الباطل وحاربت أهل الأهواء ومن يتبع الشهوات وهم الذين هاجروا الهجرة المعنوية، وقد ورد عن الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه واله وسلم): ((المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه))،[٣] فهم أهل الصلاح والخير والحق وذكر ابن الجوزي أن الغرباء هم الممدوحون المغبوطون وهم القلة بين الأكثرين، ويضيف قائلاً: "وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقاً فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ولم يدعوا إلى غير ما جاء به وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم"[٤]، ولم يكن هذا المعنى غائباً عن الصوفي فهو كثير العزلة عن المجتمع يستأنس بالليل

---

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ: ١١ \ ٣٩٧ .

(٢) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار التأصيل، ط١، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، المجلد الأول حديث ١٣٤،: ٤٨٦ .

(٣) الترغيب والترهيب، الامام الحافظ ابي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الجوزي الاصبهاني، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، ج١: ٩٠ .

(٤) مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، محمد ابن ابي بكر بن أيوب ابن قيّم الجوزية، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط٧، ١٤٢٣–٢٠٠٣م، ج٣: ١٨٦ .

ويستوحش بالنهار لأنه " من استوحش الخلوة واستأنس بالخلقِ فهو بعيدٌ من السلامة "،[١] وبهذا المعنى تسير أبيات السهروردي :

خليليّ إنّ الأنس في فرقة الإنس فكن أبداً ما عشتَ في حضرة القدسِ

تعيشُ بلا موتٍ وتبقى بلا فناً وتلحقُ بالمعنى وتنأى عن الحِسّ

وتغبطك الأفلاكُ فيما أتيته ويُشرِقُ نورٌ فيك من نائرِ الشمسِ

فأنت هو المعنى وفيك وجودهُ وفيك جميعُ الخلـــــــــــقِ والعرشُ والكرسيُّ[٢]

فقد وظف الشاعر الصوفي ثنائيات ضدية في الأبيات السابقة من قبيل (الأنس/ الوحشة)، (الحياة / الموت)، (البقاء / الفناء)، وقد اتخذ من هذا الفن وسيلة للتعبير عن حالته الوجدانية لاقتراب هذه الظاهرة الفنية من تجربته الروحية، التجربة التي يعيش من خلالها الصوفي الأنس[٣] كلما اقترب من عالم المعنى والوحشة – اتصال مع الخلق – والغربة كلما أحس وجوده في العالم الجسماني، فالشاعر الصوفي أنسه في فراق الإنس من أجل وصال المحبوب الحقيقي، وإذا تحقق الاتصال فإنه يصل إلى مرحلة البقاء بعد أن تخطى الفناء، وان كان السهروردي يستشهد بالبيت الأخير ويعبر عن حالة الفناء إلّا أن هدفه تجاوز مرحلة الفناء إلى البقاء، إذن فالسهروردي مثله كمثل الصوفية الذين سبقوه يستأنس بكل مكان أو زمان فيه وصال المحبوب فيفرح بمجيء الليل لأنه وقت الخلوة مع الحبيب يقول العطار"إذا أمسي أفرحُ إذ يكون لي مع الله تعالى خلوةً بلا تفرقةٍ وإذا أصبحُ يحصل لي حزنٌ كراهةَ أن أرى الناس وأخالطهم"،[٤] وإذا بلج الصبحُ بكى وحزن واشتاق للزمن الذي فيه وصاله :

---

(١) تذكرة الأولياء فريد الدين العطار، تح: محمد أديب الجادر، دار المكتبي، دمشق – سورية ط١، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م: ١٢٣ .

(٢) ديوان السهروردي المقتول: ٦٩

(٣) الأنس " هو فرح وسعادة غامرة تملأ القلب بالمحبوب الذي هو الله وهو حال يصل اليه السالك معتمدا على الله، ساكناً إليه مستعينا به، وفي الأنس ترتفع الحشمة وتبقى الهيبة مع الله، وبذلك يكون الأنس طمأنينة ورضا بالله"، معجم ألفاظ الصوفية، حسن الشرقاوي، مؤسسة مختار، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م: ٦٠ .

(٤) تذكرة الأولياء: ١٢٢

في كلّ صباحٍ وكل اشراقِ أبكي عليكم بدمعِ مشتاقِ

قد لسعتْ حيّةُ الهوى كبدي فلا طبيبَ لها ولا راقِ

إلّا الحبيبُ الذي شُغِفْتُ به فإنّه رقيتي وتِريـــاقي[1]

فالشاعر الصوفي يعيش الاغتراب في هذه الدنيا ويشعر بالغربة ولا يستأنس بالآخرين وهو على الرغم من عروج روحه وتساميه لديه تعلق جسمي في هذه الدنيا، ومن هنا يرى أن الموت نهايته السعيدة لرجوعه إلى عالمه الذي من أجله خلق وكأنه يستحضر غربة أبيه آدم (ع) فبقاؤه في هذه الدنيا سجنا وهذا التشبيه مقتبس من الحديث الشريف، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه اله وسلم) قوله: (الدنيا سجن المؤمن)[2]، وقد أكد هذا المعنى في قصيدة طويلة منسوبة إلى السهروردي تجاوزت العشرين بيتاً يقول فيها :

قل لأخوانٍ رأوني ميّتاً فبكوني، إذ رأوني، حزناً

أتظنون بأني ميّتكم؟ لستُ ذاك الميت – والله – أنا

انا عصفورٌ وهذا قفصي كان سجني وقميصي زمنا

انا في الصور وهذا جسدي كان جسمي الِفتُ السجنا

أنا كنزٌ وحجابي طِلسمٌ من ترابٍ قد تخلى للفنا

فاهدموا البيت ورُضّوا قفصي وذروا الكل دفيناً بيننا

وقميصي مزقوه رِمما وذروا الطلسم بعدي وثنا

لا تَرُعكم هجمةُ الموت، فما هو إلّا نقلةٌ من ها هنا

فحياتي وسنّ في مقلتي جيئةُ الموتِ تطيرُ الوسنا

(١) ديوان السهروردي المقتول: ٧٠.

(٢) إحياء علوم الدين، ألإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م: ١١٠٢.

لا تظنوا الموت موتاً، إنه لحياةٌ هي غايات المنى

فاخلعوا الأجساد عن أنفسكم تبصروا الحـــــق جهاراً بيّنـــا[١]

يصوّر السهروردي تجربته الروحية ورأيه في الحياة والموت، فيرى أن الموت الذي يخاف منه الآخرون ويروعهم ما هو إلّا نقلة لحياة أبدية، وتشبثهم بهذه الدنيا التي يعدها السهروردي سجن وقد شبه نفسه بالعصفور في القفص وإن كان روحه في عالم آخر لكن جسده في سجن هذه الدنيا، وخلاصه في هذه النقلة بالموت، فالدنيا ما هي إلا نوم أو وسن بتعبير الصوفي الشاعر، وفي هذا المورد وفي موارد أخر لم يستغن عن ثقافته الدينية ومعتقده فقد ورد في الحديث عن الرسول الأكرم: ((الدنيا حلمٌ وأهلها عليها مجازون أو معاقبون))،[٢] وينقل الغزالي أيضاً القول المأثور على ألسنة الصوفية وينقل أيضاً عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) مقولة (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)،[٣] ومن جانب آخر هناك سبب آخر لاغتراب الصوفي عن مجتمعه وذلك أنّ غيرهم لم يتحمل أسرارهم، وعدم اطلاعهم على تلك الأسرار أسلم لهم وإذا ما باح الصوفي ببعض تلك الأسرار والأحوال والمقامات فإنه معرّض إلى التعذيب بل القتل لذا فهو يقول:

بالسرّ، إنْ باحوا، تُبـاحُ دمـاؤهُم وكـــذا دمـــاءُ العاشـقين تبـــاحُ[٤]

ومن أسرار الصوفية الوصول إلى درجة الاتصال ومعنى الاتصال عندهم " مشاهدات الاسرار ومكاشفات القلوب ... وقال بعضهم : الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول "[٥] ويقول أيضاً:

من بـــــاح بينهم بذكر حبيبـــــهم دمُـــه حلالٌ للسيوف مبـــاحُ[٦]

وبسبب قصور اللغة في التعبير عن تجربتهم الروحية لجأ الصوفية إلى الرموز والاصطلاحات التي تعارفوا عليها " إن للقوم عبارات تفردوا بها، واصطلاحات فيما بينهم لا

---

(١) ديوان السهروردي المقتول: ١٠٣

(٢) احياء علوم الدين: ١١١٦ .

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١١١٦ .

(٤) ديوان السهروردي المقتول: ٥٨.

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١٤م:١٣٠.

(٦) ديوان السهروردي المقتول: ٦٣.

يكاد يستعملها غيرهم"[١] على الرغم من غموض اللغة الصوفية إلا أنهم لم يسلموا من التكفير، فالصراع كان قائماً بين أهل الظاهر وأهل الباطن من العلماء، وبسبب تمرد الصوفي العارف على النمطية التي صنعت بأيدي السلطة وبمباركة علماء الظاهر أو وعاظ السلاطين لما بين السلطتين من مصالح مشتركة فكلاهما لديهما مراكز بين عوام الناس وأي جهة تهدد مراكزهم تتعرض للاضطهاد والإبادة، ولكي يتجنب الصوفي الاضطهاد والقتل لابد له من اتخاذ بعض الإجراءات الاحترازية من قبيل الاغتراب عن المجتمع واستعمال لغة الرمز ...، إلّا أنّ بعضهم لم يسلم من أيدي السلطتين ومنهم شاعرنا الصوفي السهروردي المقتول.

ثالثاً : الاغتراب النفسي

إنّ القلق والاضطراب النفسي أو التناقضات أو الصراع الداخلي عند فرد ما صُوَر من أزمة اغترابية، وظاهرة الاغتراب النفسي عند علماء النفس ما هي إلّا إشارة سلبية " إلى النمو المشوّه للشخصية الإنسانية، حيث تفقد فيه الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة"[٢]، ومن المؤكد أن الاغتراب النفسي عند الصوفية تختلف كلياً عن هذا المفهوم وإن كان مشتملاً على الصراع الداخلي والقلق إلّا أنه صراع وقلق من أجل الوصول إلى السكينة والتي لا تنال إلّا بالوصال، فمحور الاغتراب يدور حول الانفصال الذي يعانيه الصوفية ولاسيما في بدء هجرتهم إلى الحق، فالصوفي العارف في تجربة طلب مستمر من أجل التحول من الانفصال إلى الاتصال، ومن الكثرة إلى الوحدة، لذا نجد في سيره يعاني ويشكو ويتوسل بالمعجم العذري ليعبر عن غربته وانفصاله عن الحق تعالى وهذا الانفصال والشعور بالاغتراب كان حاضراً في هذه الأبيات من شعر السهروردي:

أبداً تحنّ إليكم الأرواح ووصالكم ريحانُها والرّاحُ

وقلوبُ أهل ودادكم تشتاقكم وإلى جلال لقائكم ترتاحُ[٣]

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف: ١٣٢ .

(٢) دراسة في سيكلوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣م: ٨١ .

(٣) المصدر نفسه: ٥٨ .

فهو يحن ويشتاق وصال المحبوب وراحته واطمئنانه وسكينته في لقائه، والبعد والهجر أو الانفصال عامل أساس في اغتراب الصوفي لذا نجده في القصيدة نفسها يقول:

وبدتْ شواهد للسقام عليهم فيها لمشكل أمرهم إيضاحُ

أحبابنا، ماذا الذي أفسدتم بجفائكم، غيرُ الفساد صلاحُ

جودوا على مشتاقكم بلقائكم فالصّبُّ، عند لقائكم يرتاحُ

فإلى لقاكم نفسُه مرتاحةٌ وإلى لقاكم طرفه طمّاحُ

خفضَ الجناحَ لكم، وليس عليكم للصبّ في خفض الجناح جُناحُ

عودوا بنور الوصل في غسق الجفا فالهجرُ ليلٌ والوِصالُ صبـــاحُ[١]

وظّف الصوفي الشاعر مفردات تدل على الهجر والانفصال عن المحبوب فقد ذكر (الجفاء، الهجر) وذكر ما رافق هذا الانفصال من سقام ومن ظلمة إذ شبه هجر المحبوب له بليل مظلم وهو في هذا يبين حالته الروحية ومعاناته في البعد عن المحبوب وقد شكل هذا الانفصال اغتراباً له، وإذا كان هذا الاغتراب يسبب له الألم والسقام وعدم الطمأنينة فإنّ في الوصل راحته وانجلاء لظلمة الليل فالوصل صباحٌ ونورٌ، وأي وقت فيه وصال المحبوب فهو نهارٌ، ولقاء المحبوب ووصاله مصباحٌ يضيء الظلام:

لا تطلب المصبـــاح إنّ لقـــاءنا بالليل يغنينا عن المصبــاح[٢]

وكثيراً ما يتوسل الصوفية بعالم الملك واتخاذ هذا العالم رمزاً لعالم الملكوت، لأن بين العالمين اتصال، ولو انعدم الاتصال لانسدّ طريق العروج والترقي، وتعذّر القرب والسفر والاتصال بالحق، كما أنّ للمصباح المادي وظيفة الإنارة فإنّ المصباح المعنوي عند الصوفي هو اللقاء والقرب والوصال، وقد وظف السهروردي أيضاً عدة رموز لهذه الدلالة من قبيل (الصباح، النهار، المصباح، المشكاة، الشهب...) إذ يقول:

يا صاح، أما رأيت شُهْباً ظهرتْ قد أحرقتِ القلوب ثم انتشرت

طِرنا طرباً لضوئها حين سرت باتت وأضاءت وتولّت وســـرتْ[٣]

---

(١) دراسة في سيكلوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣م: ٥٩ .

(٢) ديوان السهروردي المقتول: ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه: ٦٤ .

وهذه إشارة للمعرفة القلبية، فمتى ما أشرق نور المعرفة في قلب العارف أزاح عنه هموم البعد والانفصال، فهو يسعى لنيل العلوم الإلهامية لا التعليمية ولا سبيل لنيل هذه المعرفة إلا المجاهدة وقطع العلائق عن المخلوق والإقبال بصدق على المحبوب لأنّ " الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية "[١]

ويصور السهروردي رحلة الترقي والانتقال من الانفصال إلى الاتصال ومن الاغتراب إلى المعرفة في أبيات يقول فيها:

محبوك تاهوا في الهوى وتولّهوا وكل امرئ يصبو لنحو الذي يهوى

ولما وردنا ماء مدين نستقي على ظمأ منا إلى منهل النجوى

نزلنا على حيٍّ كرامٍ بيوتهم مقدسةٌ لا هندُ فيها ولا عُلوى

ولاحت لنا نار على البعد أضرمت وجدنا عليها من نحـــب ومن نهوى[٢]

في البيت الأول يصور اغترابه وبعده عن المحب لكنه في حالة الترقي والقرب، وقد وظف قصة نبي الله موسى (ع) واتخذها رمزاً لتقربه فذكر (ماء مدين، هند وعلوى – رمز لابنتي شعيب – النار)، وقد وظف الجيلي[٣]هذه القصة في رحلة العروج والترقي في النادرات العينية يقول فيها :

(١) احياء علوم الدين: ٧٩٦ .

(٢) ديوان السهروردي المقتول: ٥٤ .

(٣) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ولد سنة ٧٦٧هـ وتوفي سنة ٨٢٠هـ أو سنة٨٢٦هـ على اختلاف، له كتب كثيرة في التصوف منها: (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل)، و(حقيقة اليقين)، وله في الأدب ديوان النادرات العينية، ينظر: الأعلام:٤/٥٠

فَمِن مِصرَ أرضي قد خرجتُ لِمَدْيَنَ لعلّ شُعيبَ القلبِ فيه صدائعُ
فألفيْتُ بِنْتَيْ عادَتِي وطبائِعي تذودانِ أغنامي ومائيَ نابعُ
إلى أن يقول :
رأيت قيامي راجعاً نحو ربّه تقَهْقرَ مِنّي لِلحبيب مَراجعُ
فعاينتُ أنّي كنتُ في العلم ثابتاً ولِلحقِّ عِلمُ الحقِّ في الحكمِ تابعُ
وبالعلمِ فالمعلومُ أيضاً مُلَحّقٌ وليس لهذا الحكمِ في العقلِ رادِعُ[١]

وإذا كانت ظاهرة الاغتراب من الظواهر القارة في وجدان العارف الصوفي فهو في سيره وترقيه يعيش هذه الظاهرة سواءً في بداية الرحلة أو بعد وصوله إلى المعرفة الحقة؛ لأنّه يعيش الظاهرة في العالمين (الملك والملكوت)، فهو غريب في هذا العالم لكثرة الجاهلين عن حاله ومقامه، ويعيش الغربة المعنوية في تجربته الروحية لسببين إما بسبب البعد أو الانفصال، أو بسبب عدم تناهي درجات القرب والوصال، ومن هنا فإن المعاناة والشكوى وألم الحب والهوى من الظواهر القارة ترافق الاغتراب الصوفي، فهناك جدلية بين الحب والاغتراب "لذلك كانت حركة الحب الصوفي رد فعل إزاء الاغتراب ونزوعاً نحو طريق العودة والاتصال، ومن هنا ستصبح الحركة أساس كل فناء وكل رحلة صوفية"[٢]، فمذهب العارفين الحب فلا يدينون بغير دين الحب، ولا ينكر هذا المذهب إلّا الذي حرم من القرب أو بتعبير السهروردي من لم يذق الحب من الأموات

من أنكر مذهب الهوى فليأت أنبيه بما سمعته من ذاتي
أنبيه عن الحمى وعن ساكنه من لم يذق الحـــــب من الأمـــوات[٣]

(١) النـادرات العينيـة، عبـد الكـريم الجيلـي، تـح: يوسـف زيـدان، دار الأمين،القـاهرة، ط١، ١٩٩٩م: ١٣٣ـ ١٣٧

(٢) أبعاد التجربة الصوفية، عبد الحق منصف، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٧م: ٦٠

(٣) ديوان السهروردي المقتول: ٥٧ .

الخاتمة

بعد أن حاولنا دراسة الاغتراب في الشعر الصوفي (شعر السهروردي انموذجاً) تبين لنا أن ظاهرة الاغتراب من الظواهر القارة في وجدان الصوفي ووجوده، وأنّ لهذه المفردة معنى لغوي يتمركز على الغربة الحسية من البعد عن الأوطان وفراق الأهل والأحبة، ومعنى اصطلاحي متعلق في الأعم الأغلب بالجانب المعنوي وكانت لهذه الظاهرة اهتمام كبير في الدراسات الحديثة، إلّا أن هذه الظاهرة عند الشاعر الصوفي لها خصوصية نابعة من خصوصية التجربة الروحية فكانت تدور حول محور الانفصال والاتصال وجدلية الظاهر والباطن، وقد وظف السهروردي المقتول أشعاره ضمن هذه المحورية المرتكزة على البعد عن المحبوب وما نجم من هذا البعد من اغتراب، وقد ذكر الصوفي الشاعر الأطلال وبكى عليها إلا أن بكاؤه لا للبعد عن الوطن والديار وإنما بعده عن الحق تعالى فقد يكون غريباً وهو في وطنه، أما اجتماعيا فأنسه مع محبوبه الحق ووحشته في فراقه وكلما ابتعد عن الخلق اقترب من الحق فهو غريب في المجتمع وإن كان جسمه مع الناس إلّا أنّ روحه مع الحق لذا فهو يستأنس بالليل لأن وقت الليل وقت الخلوة مع المحبوب، ولم يكن الصوفي مصاباً بأزمة نفسية وإن كان من حيث الظاهر يعلن في أشعاره مرضه واضطرابه وصراعه الداخلي فغربته معنوي لبعده عن الحق فهو في سيره إما يعاني من الانفصال فيسعى للاتصال أو أن درجات الوصال ليست متناهية فكلما قطع شوطاً عانى واشتكى في تلك الدرجة لشوقه إلى درجات أقرب من المحبوب الحق .

ثبت المصادر

أولاً: الكتب

- أبعاد التجربة الصوفية، عبد الحق منصف، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٧م.
- إحياء علوم الدين، ألإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- الاغتراب سيرة مصطلح، محمود رجب، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٨م.
- الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الانسان بين الحلم والواقع، حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٦.
- الاغتراب في الشعر العربي، أحمد علي الفلاحي، دار غيداء، ط١٤٣٤،١هـ - ٢٠١٣م
- الأعلام خير الدين الزِركلي، دار العلم للملايين،بيروت،ط٥، ١٩٨٠م .
- تذكرة الأولياء فريد الدين العطار، تح: محمد أديب الجادر، دار المكتبي، دمشق – سورية ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
- الترغيب والترهيب، الامام الحافظ ابي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الجوزي الاصبهاني، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١٤م.
- الجواهير العجيبة، احمد بن عجيبة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.
- الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، صدر الدين الشيرازي، دار احياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .
- دراسات فنية في الأدب العربي، عبد الكريم يافي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ديوان السهروردي المقتول، شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، تح: كامل مصطفى الشيبي، مطبعة الرفاه، بغداد، ٢٠٠٥م .
- ديوان أبي الحسن الششتري، تح:علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٦٠.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ .
- الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، عدنان العوادي، دار الرشد، بغداد،١٩٧٩م.

- شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، سحر سامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ٢٠٠٥م .
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار التأصيل، ط١، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م .
- العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ.
- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، أحمد بن محمد بن عجيبة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م .
- في لغة القصيدة الصوفية، محمد علي كندي، دار الكتاب الجديد، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٠م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت . لبنان.
- مختار الصحاح، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت–لبنان، ١٩٨٦م .
- مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، محمد ابن ابي بكر بن أيوب ابن قيّم الجوزية، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط٧، ١٤٢٣–٢٠٠٣م .
- مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ، دار صادر، بيروت، تح، هـ . ريتر، د . ت .
- مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، الغزالي، تح: عبد العزيز عز الدين السيروان، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م .
- معجم ألفاظ الصوفية، حسن الشرقاوي، مؤسسة مختار، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م .
- نظرية الاغتراب من المنظورين العربي والغربي، لزهر مساعدية، دار الخلدونية، الجزائر، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م .
- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري التلمساني، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م .
- النادرات العينية، عبد الكريم الجيلي، تح: يوسف زيدان، دار الأمين، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م .

❖ الوافي بالوفيات صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، تح: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

ثانياً: البحوث والدوريات

❖ الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا، قيس النوري، مجلة عالم الفكر المجلد العاشر العدد١، ١٩٧٩م .

❖ تراث الادب الصوفي، عاطف جودة، مجلة فصول المصرية، العدد١، ١٩٨٠م.